وبينما كان صالح قوش يتأهب لتنفيذ المؤامرة ، كان محمد على جالسا فى قاعة الاستقبال ومعه أمناءه الثلاثة ، وقد ظل فى مكانه هادئا إلى أن بدأ الموكب يتحرك ، واقتربت اللحظة الرهيبة ، فساوره القلق والاضطراب ، وساد القلعة صمت عميق ، إلى أن سمع إطلاق أول رصاصة وكانت إيذانا ببدء المذبحة ، فوقف محمد على وامتقع لونه ، وعلا وجهه الاصفرار وتنازعته الانفعالات المختلفة ، وأخذ يسمع دوى الرصاص ، وصيحات الذعر والاستغاثة وهو صامت لا ينبس بكلمة ، إلى أن حصد الموت معظم المماليك وأخذ صوت الرصاص يتضاءل وكان ذلك إعلانا بانتهاء المؤامرة ، وعندئذ دخل عليه المسيو ماندريش ، طبيبه الإيطالى وقال له : « لقد قضى الأمر واليوم يوم سعيد لسموكم » .... فلم يجب محمد على بشىء ، وطلب قدحا من الماء فشربه جرعة طويلة ، وخرج الكتخدا بك وأخذ يجهز على الباقين من المماليك .

أثر هذه المذبحة فى الشعب :

يقول المؤرخ الكبير عبد الرحمن الرافعى فى كتابه « تاريخ الحركة القومية » الجزء الثالث : إن الفتك بالمماليك على هذه الصورة الرهيبة ، كان له أثر عميق فى حالة الشعب النفسية ، لأن مذبحة القلعة ، أدخلت الرعب فى قلوب الناس ، وكان من نتائجها أن استولت الرهبة على القلوب ، فلم يعد ممكنا إلى زمن طويل ، أن تعود الشجاعة والطمأنينة إلى نفوس الناس ، والشجاعة خلق عظيم ، تحرص عليه الأمم الطامحة إلى العلا ، وهى قوام الأخلاق والفضائل القومية ، فإذا فقد الشعب